ذاكَ مـا قـد لَـقـيـنَ مِـنْ دَلَـجِ الـلَّـيـلِ
وقَـوْلِ الـحُـداةِ بـالـلَّـيـلِ : هَـيَّـا[١]

٢٦١
مناجاة

[الطويل]

تَـذَكَّـرْتُ لَـيْـلَـى والـسِّـنـيـنَ الْـخَـوالِـيَـا
وَأَيَّـامَ لَا نَـخْـشَـى عـلـى الـلَّـهْـوِ نَـاهِـيَـا[٢]

وَيَـوْمٌ كَـظِـلِّ الـرُّمْـحِ قَـصَّـرْتُ ظِـلَّـهُ
بِـلَـيْـلَـى فَـلَـهَّـانِـي ومـا كُـنْـتُ لَاهِـيَـا[٣]

بِـثَـمْـدِيـنَ لَاحَـتْ نَـارُ لَـيْـلَـى وَصُـحْـبَـتـي
بِـذَاتِ الْـغَـضَـى تُـزْجـي الـمَـطِـيَّ الـنَّـواجِـيَـا[٤]

فَـقَـالَ بَـصـيـرُ الْـقَـوْمِ : أَلْـمَـحْـتُ كَـوْكَـبـاً
بَـدَا فـي سَـوَادِ الـلَّـيْـلِ فَـرْداً يَـمَـانِـيَـا[٥]

---

(١) وكانت العيس تسبح مسرعة بنا والليل مُعتم، وذلك بلا راحة ولا نوم، ولا يتوانى الحداة يستحثون النياق بقولهم : هَيَّا.

(٢) تذكر الشاعر ليلى وما مضى من العمر : من سنين وأيَّام، حيث كان يلهو في طفولته وليلى بلا خوف ولا رقيب ولا عزول.

(٣) إنه يوم لا ينسى طويل أمضيته فمضى بسرعة، كأنه ظل رمح قصير، إلى جانب ليلى فلهوت، ولم يكن من عادتي اللهو.

(٤) ثمدين : اسم موضع. الغضى : ضرب من شجر الأثل. كان ذلك بثمدين حيث لاحق نار ليلى تشبّ، وكان صحبتي يحثُّون مطاياهم السريعة في بلاد نجد حيث ذات الغضى.

(٥) بصير القوم : كشّاف الرحلة ذو النظر الثاقب. فقال كشّاف الرحلة بثاقب نظره : لقد لاح لي نجم فريد يُمزّق ظلمة الليل جهة اليمن.

فَقُلْتُ لَهُ: بَلْ نَارُ لَيْلَى تَوَقَّدَتْ
بِعَلْيَا تَسَامَى ضَوْؤُهَا فَبَدَا لِيَا[١]

فَلَيْتَ رِكَابَ الْقَوْمِ لَمْ تَقْطَعِ الْغَضَى
وَلَيْتَ الْغَضَى مَاشَى الرِّكَابَ لَيَالِيَا[٢]

فَيَا لَيْلَ كَمْ مِنْ حَاجَةٍ لِي مُهِمَّةٍ
إِذا جِئْتُكُمْ بِاللَّيْلِ لَمْ أَدْرِ مَاهِيَا[٣]

خَلِيلَيَّ، إِنْ لَمْ تُبْكِيَانِيَ أَلْتَمِسْ
خَلِيلاً إِذا أَنْزَفْتُ دَمْعِي بَكَى لِيَا[٤]

فَمَا أُشْرِفُ الأَيْفَاعَ إِلَّا صَبَابَةً
وَلَا أُنْشِدُ الأَشْعَارَ إِلَّا تَدَاوِيَا[٥]

وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الشَّتِيتَيْنِ بَعْدَمَا
يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَن لَا تَلَاقِيَا[٦]

---

(١) فردّ الشاعر قائلاً: بل إنّها نار ليلى تشبّ عالياً فبدا لي كأنّه نجم يتلألأ في السماء.

(٢) تمنّى الشاعر لو لم تمرّ القافلة في نجد حيث الغضى، وتمنّى لو أن تلك الأشجار تمتدّ مسيرة ليالٍ.

(٣) يُخاطب الشاعر ليلى أنه كثيراً ما كان يجيء وفي نفسه حاجات مهمة يودّ أن يُخبرها بها ولكن ما إن يراها حتى تتيه عن باله ولا يعرف ما يقوله لها؛ وذلك بسبب اندهاشه لرؤية من يحبّ ولشدّة شوقه لها.

(٤) التمس: طلب وفتّش. أنزفت دمعي: جعلته ينتهي ويتوقف. يخاطب الشاعر صديقيه حاثًّا لهما على البكاء، وإن لم يفعلا فإنه سيطلب صديقاً يقوم بذلك في حال نفدت دموعه.

(٥) الأيفاع: التلال المطلّة. فثمَّة سبب يحملني على أن أتسلّق التلال المطلّة على حيّ ليلى، هو حبّي لها وحنيني، وكذلك فإنشادي الأشعار لأفرّج عن نفسي آلامها فأتداوى بذلك.

(٦) ورد البيت في: التصريح بمضمون التوضيح، للشيخ خالد ١: ٣٢٨، شرح الأشموني لألفية ابن مالك ٢: ١١٣. ومن الممكن أن يجمع اللَّه تعالى البعيدين المتفرقين وهما يظنان أن ذلك بعيد الحدوث وأنهما لن يجتمعا.

لَـحَـى الـلَّـهُ أَقْـوامـاً يَـقُـولـونَ: إِنَّـنـا
وَجَـدْنَـا طَـوَالَ الـدَّهْـرِ لِـلْـحُـبِّ شَـافِـيَـا[١]

وَعَـهْـدِي بِـلَـيْـلَـى، وَهْـيَ ذاتُ مُـؤَصَّـدٍ
تَـرُدُّ عَـلَـيْـنَـا بِـالْـعَـشِـيِّ الـمَـوَاشِـيَـا[٢]

فَـشَـبَّ بَـنُـو لَـيْـلَـى وشَـبَّ بَـنُـو ابْـنِـهَـا
وَأَعْـلاقُ لَـيْـلَـى فـي فُـؤادِي كَـمـا هِـيَـا[٣]

إِذَا مـا جَـلَـسْـنَـا مَـجْـلِـسـاً نَـسْـتَـلِـذُّهُ
تَـوَاشَـوْا بِـنَـا، حَـتَّـى أَمَـلَّ مَـكَـانِـيَـا[٤]

سَـقَـى الـلَّـهُ جَـارَاتٍ لِـلَـيْـلَـى تَـبَـاعَـدَتْ
بِـهِـنَّ الـنَّـوى حَـيْـثُ احْـتَـلَـلْـنَ الـمَـطـالِـيَـا[٥]

ولَـمْ يُـنْـسِـنـي لَـيْـلَـى افْـتِـقـارٌ وَلَا غِـنًـى
وَلا تَـوْبَـةٌ حَـتَّـى احْـتَـضَـنْـتُ الـسَّـوَارِيَـا[٦]

---

(١) لِشدّة تمسك الشاعر بحبّه لليلى يدعو اللّه تعالى بلعن من يعلن عن اكتشاف دواء ناجع يؤدي بالمحبّ بشفائه من الحبّ.

(٢) مُؤَصدة: أي ترتدي قميصاً صغيراً. يُعلن الشاعر معرفته بليلى يوم كانت طفلة صغيرة أنّها كانت ترتدي قميصاً صغيراً، يراها وهي عائدة إلى الحيّ برفقة النَّعم من الرعاء مع المساء.

(٣) مرّ الزمن وكبرت ليلى وبنوها وأحفادها، ولا يزال قلبي معلّقاً بها كما كانت في صغرها.

(٤) ولو سمح لنا الزمان أن نتخذ مجلس وُدٍّ ولهو لوجدنا الوشاة يتهامسون ويتغامزون ويشيرون بأصابعهم، فيُنغِّص علينا مجلسنا فنملّ المكان ونفترق مغضبين.

(٥) المطالي، واحدتها مطلاء: السواقي. يدعو الشاعر اللّه تعالى أن يبارك جارات ليلى اللواتي رحلن بعيداً عن الديار واتّخذن مساكن لهن قريباً من السواقي.

(٦) السواري، واحدتها سارية: الأمكنة المرتفعة. يقرّ الشاعر باستمرار حبّه لليلى، لذا فلا فقر ولا غنى ولا توبة عن حبّها حتى ألمّ بالأمكنة العالية.

وَلَا نِسْوَةٌ صَبَّغْنَ كَبْدَاءَ جَلْعَداً
لِتُشْبِهَ لَيْلَى ثُمَّ عَرَّضْنَهَا لِيَا[١]

خَلِيلَيَّ لَا، واللَّهِ لا أَمْلِكُ الَّذي
قَضَى اللَّهُ في لَيْلَى وَلَا ما قَضَى لِيَا[٢]

قَضَاها لِغَيْرِي وابْتَلاني بِحُبِّها
فَهَلَّا بِشَيْءٍ غَيْرِ لَيْلَى ابْتَلانِيَا[٣]؟

وَخَبَّرْتُماني أَنَّ تَيْمَاءَ مَنْزِلٌ
لِلَيْلَى إِذَا ما الصَّيْفُ أَلْقَى المَراسِيا[٤]

فَهَذِي شُهُورُ الصَّيْفِ عَنَّا قَدِ انْقَضَتْ
فَمَا لِلنَّوَى تَرْمِي بِلَيْلَى المَرامِيَا[٥]؟

فَلَوْ أَنَّ وَاشٍ بِالْيَمَامَةِ دَارُهُ
وَدَاري بِأَعْلَى حَضْرَمَوتَ اهْتَدَى لِيَا[٦]

---

(١) كبداء: امرأة ضخمة. الجلعد: المرأة الصلبة المسنَّة. ولا حتى النسوة المسنَّات الضخام اللواتي صَبغن أنفسهن بشتّى أنواع الصباغ، ليشبهن ليلى، وغرضهن أن يجعلنني أميل إلى إحداهن، ما أفلحن أن يبعدنني عنها.

(٢) و (٣) ويُقسم الشاعر لصاحبيه باللَّه العظيم أنّه ليس بمقدوره ردّ القضاء الإلٰهي المقدّر له ولليلى؛ فقد قسم اللَّه لليلى أن تكون من حظّ غيره، وحتّم عليه أن يبتليه بحبّها، ويتمنّى لو أن اللَّه تعالى قد قدّر عليه غير ذلك.

(٤) و (٥) ويخاطب الشاعر صاحبيه اللذين نقلا خبراً مفاده أن ليلى سترحل إلى تيماء حيث تُقيم إلى جانب زوجها في مطلع الصيف، ولكن سرعان ما رحل الصيف، ويتساءل الشاعر فما بال النوى يتّسع مداها والبعد تترامى مسافاته؟

(٦) ورد البيت في: شرح المفصل، لابن يعيش الحلبي ٦: ٥١، خزانة الأدب، للبغدادي ٤: ٣٩٥، شرح شواهد الشافية، للبغدادي: ٧١، ٤٠٥، مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٢٨٩ (٢٣٨)، همع الهوامع، شرح جمع الجوامع، للسيوطي ١: ٥٣، الدرر اللوامع ١: ٢٩، شرح الأشموني لألفية ابن مالك ١: ١٠٠، حاشية الدمنهوري على متن الكافي ١: ٩٠. ومن طبيعة من فسدت =

وَمَـاذا لَـهُـمْ؟ لَا أَحْـسَـنَ الـلَّـهُ حَـالَـهُـمْ
مِـنَ الـحَـظِّ فـي تَـصْـرِيـمِ لَـيْـلَـى حِـبَـالِـيَـا[١]

وَقَـدْ كُـنْـتُ أَعْـلُـو حُـبَّ لَـيْـلَـى فـلَـمْ يَـزَلْ
بِـيَ الـنَّـقْـضُ والإِبْـرامُ حَـتَّـى عَـلانِـيَـا[٢]

فـيَـا رَبِّ سَـوِّ الـحُـبَّ بَـيْـنِـي وبَـيْـنَـهَـا
يَـكُـونُ كَـفَـافـاً لَا عَـلَـيَّ وَلَا لِـيَـا[٣]

فَـمـا طَـلَـعَ الـنَّـجْـمُ الَّـذي يُـهْـتَـدَى بِـهِ
وَلَا الـصُّـبْـحُ إِلَّا هَـيَّـجَـا ذِكْـرَهـا لِـيَـا[٤]

وَلَا سِـرْتُ مِـيـلاً مِـنْ دِمَـشْـقَ وَلَا بَـدَا
سُـهَـيْـلٌ لأَهْـلِ الـشَّـامِ إِلَّا بَـدا لِـيَـا[٥]

= أخلاقه أن يُفرّق بين الأحباب والأصحاب، فلو أن أحد الوشاة علم بحالي وحال ليلى وهو باليمامة، ودار الشاعر بأعلى حضرموت لنمّ عليه لدى ليلى فأخبرها بما يُنفّرها من قيس.

(١) يسأل الشاعر ما الذي يربحه الوشاة بقطع صلتي بليلى وماذا يجنون؟ ويدعو اللّه تعالى عليهم ألّا يُحسن أحوالهم.

(٢) النقض: الهجر. الإبرام، جاءت هنا العلاقة الحميمة، يروي الشاعر رحلة حبّه، كان في بادئ الأمر يمسك بعواطفه ويتحكّم بإرادته، ولكن الأمر كان يتأرجح، فتارة هجر ونقض ووصال ولقاء حتى تمكن مني حبّ ليلى واستحكم لدي.

(٣) الكفاف: كلّ ما يكفي المرء من غذاء وغيره. يخاطب الشاعر ربّه راجياً منه أن يجعل الحبّ بينه وبين حبيبته بالتساوي بلا زيادة ولا نُقصان.

(٤) و (٥) الأمر سيّان وكلّ حركات الكون تُثير عواطف الشاعر، فلا النجم الذي يُهتدى بنوره ولا الفجر إلّا ويذكران بها، فيهيجان مشاعره. وحتى لو سار من دمشق قدر ميل وكذلك لو نجم سهيل أطلّ على أهل الشام يتلألأ في ظلمة الليل، إلّا ظهر له فذكّره بها، لذا فذكراها لا تفارقه ليل نهار.

وَلَا سُـمِّـيَـتْ عِـنْـدِي لَـهَـا مِـنْ سَـمِـيَّـةٍ
مِـنَ الـنَّـاسِ إِلَّا بَـلَّ دَمْـعِـي رِدائِـيَـا[١]
وَلَا هَـبَّـتِ الـرِّيـحُ الـجَـنُـوبُ لأَرْضِـهَـا
مِـنَ الـلَّـيـلِ إِلَّا بِـتُّ لِـلـرِّيـحِ حَـانِـيَـا[٢]
فَـإِنْ تَـمْـنَـعُـوا لَـيْـلَـى وَتَـحْـمُـوا بِـلَادَهَـا
عَـلَـيَّ فَـلَـنْ تَـحْـمُـوا عَـلَـيَّ الْـقَـوافِـيَـا[٣]
فَـأَشْـهَـدُ عِـنْـدَ الـلَّـهِ أَنِّـي أُحِـبُّـهَـا
فَـهَـذَا لَـهـا عِـنْـدي فَـمَـا عِـنْـدَهَـا لِـيَـا[٤]؟
قَـضَـى الـلَّـهُ بِـالْـمَـعْـرُوفِ مِـنْـهَـا لِـغَـيْـرِنَـا
وَبِـالـشَّـوْقِ مِـنِّـي والْـغَـرامِ قَـضَـى لِـيَـا[٥]
وإِنَّ الَّـذِي أَمَّـلْـتُ يَـا أُمَّ مَـالِـكٍ
أَشَـابَ فُـوَيْـدِي وَاسْـتَـهَـامَ فُـؤَادِيَـا[٦]

---

(١) واسم ليلى في نفس الشاعر له صدى السحر، فإذا ما سمع أحداً يُنادي باسم ليلى إلّا أثار فيه ألماً جعله يبكي فيبلّ دمعه رداءه.

(٢) حتى الريح الجنوبية لها تأثيرها العظيم في قلبه، فلو مرّت حيث ليلى ليلاً إلّا مال الشاعر يتنشّق عبيرها وأحبّها لذلك.

(٣) يخاطب الشاعر أولياء ليلى وأقاربها أنهم لن يُفلحوا بمنعه التشبيب بها وإن نجحوا بمنعها عنه وحالوا دونه ودون بلادها.

(٤) يُقسم الشاعر باللّه العظيم أنه يُحبّ ليلى، فهذا من حظها، وهو بدوره يودّ معرفة ما تخبّئه ليلى للشاعر، فهل تحبّه كما يُحبّها؟

(٥) قضى اللّه تعالى فقسم ليلى وجعلها من حصّة رجل غريب وقضى بأن جعله يُحبّها ويتعذّب من أجلها.

(٦) الفُويد، تصغير فود: الصدغ. كان أمل الشاعر كبيراً أن يحصل على ليلى، ولكن الأمل ضاع وتقدّم العمر وبدأ الشيب يغزو فوديّ وهام فؤادي في التيه والضياع.

أَعُـدُّ الـلَّـيـالِـي لَـيْـلَـةً بَـعْـدَ لَـيْـلَـةٍ
وقَـدْ عِـشْـتُ دَهْـراً لا أَعُـدُّ الـلَّـيـالِـيَـا[١]

وأَخْـرُجُ مِـنْ بَـيْـنِ الْـبُـيـوتِ لَـعَـلَّـنـي
أُحَـدِّثُ عَـنْـكِ الـنَّـفْـسَ بِـالـلَّـيْـلِ خَـالِـيَـا[٢]

أَرَانِـي إِذا صَـلَّـيْـتُ يَـمَّـمْـتُ نَـحْـوَهَـا
بِـوَجْـهِـي وَإِنْ كَـانَ الـمُـصَـلَّـى وَرائِـيَـا[٣]

وَمَـا بِـيَ إِشْـراكٌ وَلَـكِـنَّ حُـبَّـهَـا
وَعُـظْـمَ الـجَـوَى أَعْـيَـا الـطَّـبِـيـبَ الـمُـداوِيَـا[٤]

أُحِـبُّ مِـنَ الأَسْـمـاءِ مـا وافَـقَ اسْـمَـهَـا
أَوَ اشْـبَـهَـهُ أَوْ كَـانَ مِـنْـهُ مُـدَانِـيَـا[٥]

خَـلِـيـلَـيَّ لَـيْـلَـى أَكْـبَـرُ الْـحَـاجِ والْـمُـنَـى
فَـمَـنْ لِـي بِـلَـيْـلَـى أَوْ فَـمَـنْ ذا لَـهـا بِـيَـا[٦]؟

---

(١) و (٢) إحساس الشاعر بالضجر والخوف من المجهول جعله يعدّ الليالي ليلة بعد ليلة، وكان في السابق لا يهتمّ لمرور الزمن لشعوره بالسعادة آنذاك كان ينتحي جانباً، فيخرج من داره ليخلو بنفسه ويكون حوار ذاتي، يُحادث الشاعر نفسه عن حبيبته.

(٣) وحالة الضياع وشدّة تأثير ليلى في الشاعر تجعله يُيمّم وجهه في الصلاة ناحيتها، علماً أنه يعلم أن القبلة وراءه.

(٤) يقرّ الشاعر أنّه غير مشرك، وذلك يحدث منه بسبب شدّة حبّه لها ونداء القلب المبتلى أتعب الطبيب، فباء سعيه بالفشل، وحتى الدواء فقد فائدته.

(٥) يقرّ الشاعر بحبّه لكل من تسمّت باسم ليلى أو حتى ما أشبهه أو أحرف ذلك الاسم قريبة من الأصل.

(٦) يخاطب الشاعر صاحبيه أن ليلى أغلى أمانيه وحاجته إليها أقوى من أيّ شيء. ثم يسأل هل يستطيع أحد أن يصله بها أو يصلها به؟

لَعَمْرِي لقد أَبْكَيْتِني يَا حَمَامَةَ الْعَقِيـ
ـقِ وَأَبْكَيْتِ الْعُيونَ الْبَواكِيَا[١]

خَلِيلَيَّ مَا أَرْجُو مِنَ الْعَيْشِ بَعْدَمَا
أَرَى حَاجَتي تُشْتَرى وَلَا تُشْتَرَى لِيَا[٢]

وَتُجْرِمُ لَيْلَى ثُمَّ تَزْعَمُ أَنَّنِي
سَلَوْتُ وَلَا يَخْفَى على النَّاسِ مَا بِيَا[٣]

فَلَمْ أَرَ مِثْلَيْنَا خَلِيلَيْ صَبَابَةٍ
أَشَدَّ على رَغْمِ الأَعَادِي تَصافِيَا[٤]

خَلِيلَانِ لَا نَرْجُو اللِّقاءَ وَلَا نَرَى
خَلِيلَيْنِ إِلَّا يَرْجُوانِ تَلَاقِيَا[٥]

وَإِنِّي لأَسْتَحْيِيكِ أَنْ تَعْرِضَ الْمُنَى
بِوَصْلِكِ أَوْ أَنْ تَعْرِضِي في الْمُنَى لِيَا[٦]

---

(١) يخاطب الشاعر حمامة العقيق، إحدى حمائم المدينة المنوّرة، وهو يُقسم بـ «عمره» على الطريقة الجاهلية أنها بغنائها الشجيّ جعلته يبكي، وكذلك جعلت عيوناً تبكي لأجله.

(٢) يخاطب الشاعر صاحبيه أن فرصته في سبيل عيش سعيد منعّم فات، فقد أمل أن تكون ليلى قد اشتراها ذووه له، ولكن هناك من اشتراها لنفسه دونه. ما قيمة العيش إذاً؟

(٣) تخطئ ليلى بحقّ الشاعر، وممّا يزيد الشاعر ألماً تجنّيها بأن الشاعر نسيها، وكلّ الناس على علم بحاله فهم يُحسون ما يعانيه في سبيل حبّه لها.

(٤) و (٥) يعجب الشاعر أنه وحبيبته لما يلاقيانه من عذاب في حبّهما، فهما يخلصان الحبّ رغم وجود الأعداء. وهما محبّان لا يرجوان أن يجتمعا بينما يريان غيرهما من المحبين يرجون اللقاء.

(٦) استحياه: تركه حيًّا. إنّ الشاعر يستحلف حبيبته أن تُبقي عليه حيًّا، وقد تشاء الظروف ويلتقيان، أو أن تعمل حبيبته على تحقيق تلك الأمنية.

يَـقُـولُ أُنَـاسٌ : عَـلَّ مَـجْـنُـونَ عَـامِـرٍ
يَـرُومُ سُـلُـوًّا . قُـلْـتُ : أَنَّـى لِـمَـا بِـيَـا[١] ؟

بِـيَ الْـيَـأْسُ أَوْ داءُ الـهُـيَـامِ أَصَـابَـنِـي
فَـإِيَّـاكَ عَـنِّـي لَا يَـكُـنْ بِـكَ مَـا بِـيَـا[٢]

إِذا مَـا اسْـتَـطَـالَ الـدَّهْـرُ يَـا أُمَّ مَـالِـكٍ
فَـشَـأْنُ الـمَـنَـايَـا الْـقَـاضِـيَـاتِ وَشَـانِـيَـا[٣]

إِذا اكْـتَـحَـلَـتْ عَـيْـنِـي بِـعَـيْـنِـكِ لَـمْ تَـزَلْ
بِـخَـيْـرٍ وجَـلَّـتْ غَـمْـرَةً عَـنْ فُـؤَادِيَـا[٤]

فَـأَنـتِ الَّـتِـي إِنْ شِـئْـتِ أَشْـقَـيْـتِ عَـيـشَـتِـي
وَأَنـتِ الَّـتِـي إِنْ شِـئْـتِ أَنْـعَـمْـتِ بَـالِـيَـا[٥]

وَأَنـتِ الَّـتِـي مَـا مِـنْ صَـدِيـقٍ وَلا عِـدَى
يَـرَى نِـضْـوَ مَـا أَبْـقَـيْـتِ إِلَّا رَثَـى لِـيَـا[٦]

---

(١) ورد البيت في لسان العرب ١١ : ٦٠٧ مادة (لعل) «الجوهري : لعلّ كلمة شكّ، وأصلها عَلّ، واللام في أولها زائدة؛ قال مجنون بني عامر : . . . أنّى لما بيا». يتناقل الناس مقالة آملين فيها أن ينسى الشاعر حبّه، فيردّ عليهم ليس للسلوان عندي طريق وكيف ذلك وقلبي يملؤه حبّ عظيم؟

(٢) ويردّ مخاطباً أحد القائلين، لقد استولى عليه اليأس والحبّ جعله يهيم في البراري والقفار، فابتعد عنّي لئلّا يصيبك من مرضي ما يعديك.

(٣) يُخاطب الشاعر ليلى أم مالك أن الموت سيُدركه حتى لو طال به العمر، وذلك لا مفرّ منه، وهذا شأنه في سائر البشر، وشأني أن أقع فريسة الموت ذات يوم.

(٤) و (٥) إذا ابتسم الزمن لي والتقت عيني بعينك واكتحلت بمرآك شعّ نور السعادة فيهما وزال الهمّ عن قلبي. فأنت سرّ شقائي إن بخلتِ بلقاء ورضًى وأنت سرّ سعادتي إن أنعمتِ عليّ بما أحبّ وأتمنّى.

(٦) النضو : الثوب البالي، وأنت أضنيتني حتى ساءت أحوالي وأصبحت كثوب بالٍ لشدّة ضعفي، لذا ما من مخلوق، سواء أكان صديقاً أم عدوّاً رآني إلّا رثى لي.

أَمَـضْـروبَـةٌ لَـيْـلَـى عـلـى أَنْ أَزُورَهـا
ومُـتَّـخَـذٌ ذَنْـبـاً لَـهـا أَنْ تَـرَانِـيَـا[١]؟

إِذا سِـرْتُ فـي الأَرْضِ الْـفَـضَـاءِ رَأَيْـتُـنـي
أُصَـانِـعُ رَحْـلِـي أَنْ يَـمِـيـلَ حِـيَـالِـيَـا[٢]

يَـمِـيـنـاً إِذا كَـانَـتْ يَـمِـيـنـاً وَإِنْ تَـكُـنْ
شِـمَـالاً يُـنَـازِعُـنـي الـهَـوَى عَـنْ شِـمَـالِـيَـا[٣]

هِـيَ الـسِّـحْـرُ إِلَّا أَنَّ لـلـسِّـحْـرِ رُقْـيَـةً
وَإِنِّـي لَا أُلْـفِـي لَـهـا الـدَّهْـرَ رَاقِـيَـا[٤]

إِذا نَـحْـنُ أَدْلَـجْـنـا وَأَنـتِ أَمـامَـنَـا
كَـفَـى لِـمَـطَـايَـانَـا بِـذِكْـرَاكِ هَـادِيَـا[٥]

ذَكَـتْ نَـارُ شَـوْقـي فـي فُـؤَادي فـأَصْـبَـحَـتْ
لَـهـا وَهَـجٌ مُـسْـتَـضْـرَمٌ فـي فُـؤَادِيَـا[٦]

---

(١) يستنكر الشاعر على أهلها أنّهم يضربونها ويُهينونها لا لشيء إلّا لأنه يزورها زيارة بريئة ليس فيها فُحش، وهم يعتبرونها مذنبة إذا رأته، وهل في ذلك ظلم إذا رأته؟

(٢) و (٣) ولو أن الشاعر سار في الأرض الفضاء راح يلاطف ناقته ويتملّق لها حتى تميل نحو حبيبته، وهي تُبدي تمنّعاً، وكأنها لا ترغب له العذاب، فيميل بها حيث يعلم أن ليلى تنزل في ديار على يمين الطريق، وإن كانت تنزل في ديار على شمال الطريق، نازعه حبّه فدفعه إلى حيث توجد وأطاعه بلا مقاومة أو اعتراض.

(٤) إنها السحر، ولكلّ سحر رقية تُبطله، ولكن سحرها لا يوجد ما يبطله لا في الزمان على امتداده ولا حتى في أرض اللّه تعالى الواسعة.

(٥) وإذا رحل الشاعر مع صحبه ليلاً، فيكفي أن يذكرها حتى تنساق المطايا بلا دليل وكأنّ شيئاً مجهولاً للسير حيث تُوجد.

(٦) شبّت نار شوق الشاعر في فؤاده لذكره حبيبتَه فبدا لها ضياء وبريق يشتعل في قلبه.

أَلَا أَيُّـهـا الـرَّكْـبُ الْـيَـمـانُـونَ عَـرِّجُـوا
عَـلَـيْـنـا فـقـد أَمْـسـى هَـوَانـا يَـمَـانِـيَـا[١]

أُسـائِـلُـكُـمْ هَـلْ سَـالَ نَـعْـمَـانُ بَـعْـدَنَـا؟
وَحُـبَّ عَـلَـيْـنـا بَـطْـنُ نَـعْـمَـانَ وَادِيَـا[٢]

أَلَا يـا حَـمَـامَـيْ بَـطْـنِ نَـعْـمـانَ هِـجْـتُـمـا
عَـلَـيَّ الـهَـوَى لَـمَّـا تَـغَـنَّـيْـتُـمـا لِـيَـا[٣]

وَأَبْـكَـيْـتُـمـانِـي وَسْـطَ صَـحْـبِـي وَلَـمْ أَكُـنْ
أُبَـالِـي دُمُـوعَ الْـعَـيْـنِ لَـوْ كُـنْـتُ خَـالِـيَـا[٤]

وَيَـا أَيُّـهـا الْـقُـمْـرِيَّـتَـانِ تَـجَـاوَبَـا
بِـلَـحْـنَـيْـكُـمَـا ثُـمَّ اسْـجَـعَـا عَـلِّـلانِـيَـا[٥]

فَـإِنْ أَنـتُـمـا اسْـتَـطْـرَبْـتُـمـا أَوْ أَرَدْتُـمَـا
لَـحَـاقـاً بِـأَطْـلالِ الْـغَـضَـى فـاتْـبَـعـانِـيَـا[٦]

أَلَا لَـيْـتَ شِـعْـرِي مَـا لِـلَـيْـلَـى وَمَـا لِـيَـا
ومَـا لِـلـصِّـبَـا مِـنْ بَـعْـدِ شَـيْـبٍ عَـلَانِـيَـا[٧]

---

(١) يخاطب الشاعر قافلة تتّجه إلى موطنها في بلاد اليمن أن يميلوا نحوهم، فحبّه أصبح يمانياً.

(٢) نَعمان: اسم جبل. يودّ الشاعر أن يستفسر عن جبل نَعمان هل تلاشى عن جغرافية الوجود بعد غيابه عنه؟ فحبّ واديه لا زال يعمر القلب والوجدان.

(٣) و (٤) يخاطب الشاعر حمامتي وادي نَعمان أنهما أثارتا مشاعر الشاعر وحرّكتا لواعج حبّه عندما صدحا له غناءً شجيّاً، فجعلاه يبكي وهو وسط أصحابه، وهو في الحقيقة لا يهتمّ للبكاء مطلقاً لو كان قلبه يخلو من حبّ ليلى.

(٥) و (٦) ويخاطب القُمريتين أيضاً طالباً منهما ترديد الغناء الجميل بلحنيهما وسقياه من سجعهما. ويسألهما إن كان ذلك الغناء جعلهما يطربان أو ذكّرهما هذا اللحن الديار بأطلال «الغضى» فليتبعانه، فإنه بدوره يقصد ذلك الربع.

(٧) مرّ العمر سريعاً، ولا زال الشاعر يعجب لما يُحسّ به نحو ليلى من مشاعر، =

أَلَا أَيُّـهـا الْـوَاشِـي بِـلَـيْـلَـى، أَلَا تَـرَى
إِلـى مَـنْ تَـشِـيـهَـا أَوْ بِـمَـنْ جِـئْـتَ وَاشِـيَـا[١]؟
لَـئِـنْ ظَـعَـنَ الأَحْـبَـابُ يَـا أُمَّ مَـالِـكٍ
فَـمَـا ظَـعَـنَ الْـحُـبُّ الَّـذِي فـي فُـؤَادِيَـا[٢]
فَـيَـا رَبِّ إِذْ صَـيَّـرْتَ لَـيْـلَـى هِـيَ الـمُـنَـى
فَـزِنِّـي بِـعَـيْـنَـيْـهَـا كَـمـا زِنْـتَـهَـا لِـيَـا[٣]
وَإِلَّا فَـبَـغِّـضْـهـا إِلَـيَّ وَأَهْـلَـهـا
فَـإِنِّـي بِـلَـيْـلَـى قـد لَـقِـيـتُ الـدَّواهِـيَـا[٤]
عـلـى مِـثْـلِ لَـيْـلَـى يَـقْـتُـلُ الـمَـرْءُ نَـفْـسَـهُ
وَإِنْ كُـنْـتُ مِـنْ لَـيْـلَـى عـلـى الْـيَـأْسِ طـاوِيَـا[٥]
خَـلِـيـلَـيَّ إِنْ ضَـنُّـوا بِـلَـيْـلَـى فَـقَـرِّبَـا
لِـيَ الـنَّـعْـشَ وَالأَكْـفـانَ واسْـتَـغْـفِـرَا لِـيَـا[٦]

= ويعجب أيضاً بالذي تُحسّ به ليلى وبإحساس الشباب تختلج به مشاعره وقد علاه الشيب.

(١) يخاطب الشاعر من أتاه يشي بليلى بأنّه أخطأ العُنوان، فيسأله أتعرف من تشي بها إليه؟ إنه الحبيب، ثم يُردف قائلاً: أو بمن جئت واشياً؟ حتى ليلى فإنك لم تعرف مشاعرها ومقدار حبّها لي.

(٢) لئن رحلت بعيداً عني يا أمّ مالك، فإن الحبّ لا يزال يملأ القلب والروح والوجدان.

(٣) و (٤) ورد البيت في لسان العرب ١٣: ٢٠٢ مادة (زين) «ـ وزانه وزيّنه بمعنى؛ وقال المجنون: . . . لي الهوى، . . .» يخاطب الشاعر ربّه أنّه جعل ليلى مناه وأمله في هذا الوجود ثم يطلب منه أن يجعله جميلاً بعينها كما جعلها جميلة بعينيه، وإلّا فاحملني على كرهها وكره من تنتمي إليه؛ وذلك أني تحمّلت في سبيلها وسبيل حبّها الكوارث المدمّرة.

(٥) لكل امرئ في حياته هدف يسعى لتحقيقه، فإلى من تتمتّع بصفاتها يبذل المرء نفسه رخيصة ويُضحّي بها. حتى وإن كان يخفي اليأس من نوالها في قلبه.

(٦) يخاطب الشاعر صاحبيه طالباً منهما أن يُحضّرا نعشاً لنقل جثمانه في حال وفاته =

وهذه هي القصيدة نقلاً عن الديوان المخطوط، وواضح ما فيها من الاختلاف في الترتيب والزيادة والنقص، ولا يظهر إلا بإثباتها كلها:

تـذكَّـرتُ لـيـلـى والـسـنـيـنَ الـخـوالـيـا
وأيـامَ لا نـخـشـى عـلـى الـلـهـو نـاهـيـا
بِـثـمـدَيـن لاحـتْ نـارُ لـيـلـى وصُـحـبـتـي
بـذاتِ الـغَـضـى تـزجـي الـمَـطِـيَّ الـنـواجـيـا
فـقـال بـصـيـرُ الـقـوم ألـمـحْـتُ كـوكـبـاً
بـدَا فـي سـوادِ الـلـيـل فـرْداً يـمـانـيـا
فـقـلـت لـه بـل نـارُ لـيـلـى تـوقَّـدت
بـعَـلْـيَـا تـسـامـى ضـوؤهـا فـبـدا لـيـا
فـلـيـت رِكَـابَ الـقـوم لـم تـقـطـعِ الـغـضـى
ولـيـت الـغـضـى مـاشـى الـرِّكـاب لـيـالـيـا
فـقـلـت ـ ولـم أمـلـك ـ لـعـمـرو بـن مـالـك:
أحـتـفٌ بـذات الـرقـمـتـيـن بـدا لـيـا
تـبـدَّلْـتُ مـن جَـدواكِ يـا أُمَّ مـالـك
وسـاوسَ هـمٍّ يـحـتـضـرْن وسـاديـا
فـإنّ الـذي أمَّـلـتُ مـن أُمّ مـالـك
أشـابَ قَـذالـي واسـتـهـامَ فـؤاديـا
فـلـيـتـكـم لـم تـعـرفـونـي ولـيـتـكـم
تـخـلَّـيـتُ عـنـكـم لا عـلـيَّ ولا لـيـا

= وأكفاناً وأن يطلبا له المغفرة من ربّه، ذلك أن أهل ليلى بخلوا بها عليه، وهو يبذل كلّ غالٍ في سبيل الحصول عليها.

خليليَّ إن بانوا بليلى فقرِّبا
ليَ النَّعْشَ والأكفانَ واستغفرا ليا
وخُطَّا بأطرافِ الأسنَّةِ مضجعي
وردُّوا على عينيَّ فَضْلَ ردائيا
ولا تَحْسُداني بارك اللَّه فيكما
من الأرضِ ذاتِ العَرْضِ أن تُوسِعا ليا
فيومانِ يومٌ في الأنيسِ مُرَنَّقٌ
ويومٌ أُباري الرائحاتِ الجواريا
إذا نحنُ أَدْلَجْنا وأنتِ أمامنا
كفى لِمَطايانا بريحِكِ هاديا
أعدّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ
وقد عشْتُ دهراً لا أعدّ اللَّياليا
إذا ما طَواكِ الدَّهرُ يا أُمَّ مالكٍ
فشأْنُ المنايا القاضيات وشانيا
رويداً لئلا يركبَ الحبُّ والهوى
عظامَك حتى ينطَلِقْنَ عواريا
ويأخذَكَ الوسواسُ من لاعج الهوى
وتخرس حتى لا تجيبَ المناديا
خليليَّ إنْ دارَت على أُمِّ مالكٍ
صروفُ اللَّيالي فابغيا ليَ ناعيا
ولا تتركاني إلا لخيرٍ مُعجَّلٍ
ولا لبقاءٍ تطلبانِ بقائيا

خليليَّ ليلى قُرّة العينِ فاطلبا
إلى قرّةِ العينين تَشفي سقاميا
خليليَّ لا واللَّهِ لا أملكُ البكا
إذا عَلَمٌ من آل ليلى بدا ليا
خليليَّ لا واللَّهِ لا أملكُ الذي
قضى اللَّه في ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيري وابتلاني بحبِّها
فهلّا بشيءٍ غير ليلى ابتلانيا
خليليَّ لا تستنكرا دائم البكا
فليس كثيراً أنْ أُديمَ بكائيا
وكيف وما في العين من مُضْمَرِ الحشا
تُضَمِّنُهُ الأحزانُ منها مكاويا
فيا رَبِّ سَوِّ الحبَّ بيني وبينها
يكونُ كفافاً لا عليَّ ولا ليا
وإلا فبغِّضْها إليَّ وأهلها
تكنْ نعمةً ذا العرش أهديتها ليا
أرى الدهرَ والأيامَ تفنى وتنقضي
وحبُّكِ لا يزداد إلَّا تماديا
فيا رَبِّ إن زادتْ بقيَّة ذنبها
على أجرها فانقُصْ لها من كتابيا
قضى اللَّه بالمعروف منها لغيرنا
وبالشوقِ والإبعادِ منها قضى ليا

فـإنْ يَـكُ فـيـكـمْ بـعـلُ لـيـلـى فـإنـنـي
وذي الـعـرش قـد قـبَّـلـتُ لـيـلـى ثـمـانـيـا
إذا اكـتـحَـلَـتْ عـيـنـي بـعـيـنـكِ لـم تـزل
بـخـيـرٍ وأَجْـلَـتْ غـمـرةً عـن فُـؤادِيـا
وأَنـتِ الـتـي إن شـئـتِ نَـغَّـصْـتِ عـيـشـتـي
وإن شـئـتِ بـعـد الـلَّـه أنـعـمـتِ بـالـيـا
وإنـي لأسـتـغـشـي ومـا بـي نـعـسـة
لـعـلَّ خـيـالاً مـنـكِ يـلـقـى خـيـالـيـا[1]
وإنـي إذا صَـلَّـيـتُ وَجَّـهْـتُ نـحـوهـا
بـوجـهـي وإن كـان الـمُـصـلَّـى ورائـيـا
ومـا بـيَ إشـراكٌ ولـكـنَّ حـبَّـهـا
كـعُـودِ الـشَّـجـى أعـيـا الـطـبـيـب الـمـداويـا
أُحـبُّ مـن الأسـمـاءِ مـا وافـق اسـمـهـا
وشـابَـهَـه أو كـانَ مـنـه مُـدانـيـا
فـيـا لـيـلَ كـم مـن حـاجـةٍ لـي مُـهِـمَّـةٍ
إذا جـئـتـكـم يـا لـيـلَ لـم أدرِ مـا هـيـا
أخـافُ إذا نـبَّـأْتُـكـم أن تـردَّنـي
فـأتـركـهـا ثـقـلاً عـلـيَّ كـمـا هـيـا
أُصـلِّـي فـمـا أدري إذا مـا ذكـرتـهـا
اثـنـتـيـن أُصَـلِّـي فـي الـضُّـحـى أم ثـمـانـيـا
ومـا جـئـتـهـا أبـغـي شـفـائـي بـنـظـرةٍ
فـأُبـصـرهـا إلا انـصـرفـتُ بـدائـيـا

(١) ورد البيت في سرّ صناعة الإعراب: ٣٤٠.

دعـوتُ إلٰـه الـنـاسِ عـشـريـن حِـجَّـةً
نـهـاري ولـيـلـي فـي الأنـيـسِ وخـالـيـا

لـكـي تُـبْـتـلـى لـيـلـى بـمـثـلِ بـلـيَّـتـي
فـيـنْـصِـفُـنـي مـنـهـا فـتـعـلـمُ حـالـيـا

فـلـم يَـسْـتَـجِـبْ لـي مـن هـواهـا بـدعـوةٍ
ومـا زاد بـغـضـي الـيـوم إلا تـمـاديـا

وتـذنـب لـيـلـى ثـم تـزعـم أنـنـي
أسـأْتُ ولا يـخـفـى عـلـى الـنـاس مـا بـيـا

وتُـعـرض لـيـلـى عـن كـلامـي كـأنـنـي
قـتـلـتُ لـلـيـلـى إخـوةً ومـوالـيـا

يـقـول أُنـاسٌ عَـلَّ مـجـنـونَ عـامـرٍ
يـرومُ سـلـوًّا قـلـت أَنَّـى بـه لـيـا

بـي الـيـوم داء لـلـهـيـام أصـابـنـي
ومـا مـثـلـه داءٌ أصـاب سَـوائـيـا

فـإن تـمـنـعـوا الـلـوَّامَ فـيـهـا جـهـالـةً
فـلـيـت الـهـوى بـالـلائـمـيـن مـكـانـيـا

لَـوَ انَّ الـهـوى فـي حـبّ لـيـلـى أطـاعـنـي
أطـعـتُ ولـكـنَّ الـهـوى قـد عـصـانـيـا

ولـي مـثـل مـا فـي شِـعْـرِ مَـنْ كـان ذا هـوًى
يـبـيـت جـريـح الـقـلـب حَـرَّانَ سـاهـيـا

فـإن يـك فـيـكـم بَـعْـلُ لـيـلـى فـقـل لـه
تـصـدَّقْ بـلـيـلـى طـيِّـب الـنـفـس راضـيـا

فـأشـهـد عـنـد الـلّـه أنـي أُحـبّـهـا
فـهـذا لـهـا عـنـدي فـمـا عـنـدهـا لـيـا
خـلـيـلـيَّ إن أَغْـلَـوْا بـلـيـلـى فـأغـلـيـا
عـلـيَّ وإِنْ أَبْـقَـوْا فـلا تُـبْـقـيـا لـيـا
وإن سـألـوا إحـدى يـديّ فـأعـطـيـا
يـمـيـنـي وإن زادوا فـزيـدوا شـمـالـيـا
أمـضـروبـة لـيـلـى عـلـى أن أزورهـا
ومـتَّـخـذٌ جُـرْمـاً عـلـى أنْ تـرانـيـا
ذَكَـتْ نـار شـوقـي فـي فـؤادي فـأصـبـحـتْ
لـهـا وَهَـجٌ مـسـتـضـرَمٌ فـي فـؤاديـا
وخـبَّـرتُـمـانـي أنّ تـيـمـاء مـنـزل
لـلـيـلـى إذا مـا الـصـيـفُ ألـقـى الـمـراسـيـا
فـهـذي شـهـور الـصـيـف عـنَّـا قـد انـقـضـت
فـمـا لـلـنَّـوى تـرمـي بـلـيـلـى الـمـراميـا
إذا الـحـبّ أضـنـانـي دعـوا لـي طـبـيـبـهـم
فـيـا عـجـبـاً هـذا الـطـبـيـبَ الـمـداويـا
وقـالـوا بـه داء قَـدَ اْعـيـا دواؤه
وقـد عـلـمـت نـفـسـي مـكـان شـفـائـيـا
وقـد كـنـتُ أعـلـو الـحـبّ حـيـنـاً فـلـم يـزل
بـي الـنـقـص والإبـرامُ حـتـى عـلانـيـا
لـئـن ظـعـن الأحـبـابُ يـا أُمَّ مـالـك
لـمـا ظـعـن الـحـبُّ الـذي فـي فـؤاديـا

ألا ليتنا كنا جميعاً وليت بي
من الداءِ ما لا يعلمونَ دوائيا
فما هبَّت الريح الجنوب بأرْضِها
من الليل إلَّا بِتُّ للريحِ حانيا
ولا سُمِّيَتْ عندي لها من سَمِيَّةٍ
من الناس إلَّا بَلَّ دمعي ردائيا
خليليَّ أما حبُّ ليلى فقاتلٌ
فمن لي بليلى قبل موت علانيا
فلو كان واشٍ باليمامة داره
وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا
وماذا لهم لا أحسن اللَّه حفظهم
من الحظ في تصريم ليلى حباليا
ومن أجلها سُمِّيتُ مجنونَ عامر
فِداها من المكروه نفسي ومالياً
فلو كنتُ أعمى أخبط الأرض بالعصا
أصمَّ فنادتْني أجبْتُ المناديا
وأخرج من بين البيوتِ لعلَّني
أُحدِّثُ عنكِ النفسَ يا لَيْلَ خاليا
ولا سرتُ ميلاً من دمشقَ ولا بدا
سُهَيْلُ لأهلِ الشامِ إلَّا بدا ليا
ولا طلع النجم الذي يُهْتَدى به
ولا البَرْقُ إلَّا هيَّجا ذِكْرَها ليا

بـنـفـسـي وأهـلـي مَـنْ لَـوَ انّـي أتـيـتـه
عـلـى الـبـحـرِ واسْـتَـسْـقَـيـتُـه مـا سـقـانـيـا

ومَـنْ قـد عـصـيـتُ الـنـاس فـيـه جـمـاعـة
وصـرَّمـت خِـلَّانـي بـه وجـفـانـيـا

ومَـنْ لـو رأى الأعـداءَ يـكـتـنـفـونـنـي
لـهـمْ غَـرَضـاً يَـرمـونـنـي لـرمـانـيـا

ولـم يُـنْـسِـنـي لـيـلـى افـتـقـارٌ ولا غـنـى
ولا تـوبـةٌ حـتـى احـتـضـنْـتُ الـسَّـواريـا

ولا نـسـوة صَـبَّـغْـنَ كَـبْـدَاءَ جَـلْـعَـداً
لـتـشـبـه لـيـلـى ثـم عـرَّضْـنَـهـا لـيـا

حـلـفـت لـئـن لاقـيـتُ لـيـلـى بـخـلـوةٍ
أطـوف بِـبَـيْـتِ الـلَّـه رَجْـلانَ حـافـيـا

شـكـرتُ لـربـي إذ رأيـتُـكِ نـظـرةً
نـظـرتُ بـهـا لا شـك تـشـفـي هـيـامـيـا

٢٦٢
دعوني أموت

[الطويل]

دَعُـونـي دَعـونـي قـد أَطـلـتُـم عَـذابِـيَـا
وأَنْـضَـجْـتُـمُ جِـلْـدي بِـحَـرِّ الـمَـكـاوِيـا[1]

(١) قد طفح الكيل بالشاعر ويودّ الخلاص ممّا هو فيه لذا يطلب منهم أن يتركوه وشأنه ويطلقوا سراحه فقد عذّبوه طويلاً وأنضجوا جلده بالمكاوي وكأنه شاة يريدون أكلها.